73- ابن زهر: التيسير، ص 160.

74- د. صبحي: علم وظائف الأعضاء العام، ج 2، ص ص 187 – 188.

75- ابن زهر: التيسير، ص ص 123 – 124.

76- ابن زهر: نفس المصدر، ص 124.

77- الدكتور محمد عثمان نجاتي: الإدراك الحسي عند ابن سينا، ص ص 85 – 8

حركة التأليف في غريب الحديث"النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير نموذجا".

د/ عبد القادر سلماني*

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد:

لا شك أن للألفاظ اللغوية أثرها في حياة الإنسان، فهي إحدى أدوات التواصل التي يعبر بها عمّا في الجنان بواسطة اللسان، ويرتقي دور الألفاظ مع تطور الحياة الفكرية وتقدم العلوم، إذ لولاها لما وصلت العلوم والمعارف من السابق إلى اللاّحق شيء.

ولما كانت الألفاظ خزائن المعاني وحاضنة المعارف، إذ بفهمها يفهم مدلولها، وتتضح معانيها، كانت مقدمة على المعاني عند العلماء، وهذا ما أشار إليه ابن الأثير فيما يلزم لمعرفة علم الحديث، حيث قال:" أحدهما معرفة ألفاظه، والثاني معرفة معانيه، ولا شك أن معرفة ألفاظه مقدمة في الرتبة، لأنها الأصل في الخطاب، وبها يحصل التفاهم، فإذا عرفت، ترتبت المعاني عليها، كان الاهتمام ببيانها أولى".

ولعظم أهمية الألفاظ، أعارها علماء العربية عنايتهم من الدراسة والجمع والتصنيف، فكانت بداية المؤلفات اللغوية، تدور حول الألفاظ، ومن هذه المؤلفات كتب "غريب القرآن"، وفي طليعتها كتاب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (ت68هـ)، الذي عدّ اللبنة الأولى في هذا الباب، ثم توالى التأليف في هذا اللون من اللغة، فعرف كتاب غريب القرآن لأبي عبيدة، وكتاب غريب القرآن للسّدوسي، وكتاب غريب القرآن لابن قتيبة... وسواها.

* أستاذ محاضر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ، جامعة وهران

وامتد هذا النوع من التأليف اللغوي إلى الحديث النبوي الشريف، ويتعلّق الأمر بشرح غريب الحديث، فكان منه كتاب غريب الحديث لأبي عبيدة، وكتاب غريب الحديث للأصمعي، وكتاب غريب الحديث للنضر بن شميل... وغيرها.

فما هي جهود هؤلاء العلماء في تأسيس هذا النوع من الفكر المنهجي الخاص بغريب الحديث؟ ولماذا سمّى أصحاب المصنّفات كتبهم "بالغريب" مع أن مادة "غريب" لا تختزن في مضامينها معنى الشرح والتفسير والتوضيح؟ ولإلقاء الضوء على هذا الموضوع، وضعت خطة تحتوي على تمهيد ومطلبين وخاتمة .

أما التمهيد: فخصّصته للتعريف بمصطلح الغريب.

وأما المطلب الأول: فخصّصته للوقوف على حركة التأليف في غريب الحديث.

وأما المطلب الثاني: فخصّصته للتعريف بابن الأثير، ومنهجه في" النهاية في غريب الحديث والأثر". ثم الخاتمة.

تمهيد: في التعريف بالغريب:

1-المعنى اللغوي: إذا تتبعنا نصوص اللغويين نلتمس معاني مادة (غَرَبَ) واستعمالاتها (1)، فإننا نجد"الغَرْب" هو الذّهاب والتنحّي عن الناس. وقد غَرَب عنّا يَغْرُب غَرْباً، وغَرَّب، وأغْرَب، وغَرُبَه وأغربه إذا نَحّاه. والغَرْبة والغُرْبة: النوى والبعد، والخبر المُغْرِب: الذي جاء غريباً حادثاً طريفاً. وقيل:" العلماء غرباء" لقلتهم فيما بين الجُهّال، والغريب هو البعيد عن وطنه، والغريب من الكلام: الغامضُ. وأغرب الرجل إذا جاء بشيء غريب، وأتى في كلامه بالغريب إذا كان بعيداً عن الفهم، وشأوٌ مُغْرَب ومُغَرَّب: بعيد. وغُرِبت الكلمةُ: غَمُضَتْ. وتكلّم فأغْرَبَ: جاء بغريب الكلام ونوادره. وكُفَّ من غَرْبك أي: من حدّتك، وفي لسانه غَرَب أي: حِدّة؛ ومما تقدم يتبين لنا أنّ دلالة مادة " الغريب" تنحصر في: القلة والنُدرة، والبعد، والحدّة.

2-المعنى الاصطلاحي للغريب. ومكانته في مجال علوم الحديث:

غريب الحديث في منهج المحدثين، وهو من المهمات المتعلقة بفهم الحديث والعلم والعمل به، لا بمعرفة صناعة الإسناد (2). ويتعلق الأمر بما وقع في متن الحديث من لفظة غامضة، بعيدة من الفهم لقلة استعمالها. (3)

وهو فن مهم يقبح جهله للمحدثين خصوصا، وللعلماء عموما، ويجب أن يتثبت فيه، ويتحرى، ويؤكد الإمام النووي رحمه الله تعالى على صعوبة هذا الفن بقوله: "هو فن مهم، والخوض فيه صعب فليتحر خائضه، وكان السلف يتثبتون فيه أشد التثبت" (4)، وقد جاء في الأثر أن الإمام احمد بن حنبل قد سئل عن حرف منه. فقال:" سلوا أصحاب الغريب، فإني أكره أن أتكلم في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالظنّ فأخطئ " (5)، وقد أشار الحافظ ابن حجر العسقلاني وغيره، إلى وجه الحاجة لهذا الفن، بحيث إن خفي معنى اللفظ احتيج إلى شرح الغريب، وبيان المشكل منه. (6)

ولهذا تجد أنه لم يقدم على شرح غريب الحديث في العلماء المتقدمين الذين افتتحوا هذا الفن إلا من بلغ رتبة الاجتهاد، وأخذ بأكبر الحظ من علوم الرواية والدراية، ورحل، وسمع، وروى، وفقه، ومن ثم يقول الإمام النووي: ولا يقلد منها إلا ما كان مصنفوها أئمة أجلة (7)، قال السيوطي شارحا عليه:" كمجمع الغرائب لعبد الغفار الفارسي. وغريب الحديث لقاسم السرقسطي، وافائق للزمخشري، والغريبين للهروي، وذيله للحافظ أبي موسى المديني، ثم النهاية لابن الأثير، وهي أحسن كتب الغريب، وأجمعها، وأشهرها الآن وأكثرها تداولا".(8)

المطلب الأول: حركة التأليف في غريب الحديث:

نهض العلماء منذ وقت مبكر لخدمة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعدّدت اتجاهاتهم ومناهجهم العلمية لتحقيق هذه الخدمة، وكانوا يَعُدُّونها من أعظم القربات والعبادات، فكانت لهم المساهمة الفعلية في صناعة المعاجم في إطار التخصّص، وقد تميّزوا في هذا النوع من الفكر المنهجي بالجدّية والتكامل والتواصل.

وعلم غريب الحديث مظهرٌ من مظاهر الجهود الحثيثة التي بُذلت في سبيل بيان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإدراك فقهه ومقاصده.

وقد تحدّث الإمام الخطابي في مقدمة كتابه " غريب الحديث " (9) عن أسباب نشأة الغريب في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأشار إلى أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم بُعث مبلّغا ومعلّما، فهو لا يزال في كلّ مَقام يقومه وموطن يشهده، يأمر بمعروف. وينهى عن منكر، ويُفتي في نازلة. والأسماع إليه مُصْغية.

وقد تختلف في ذلك عباراته، ويتكرّر بيانه، ليكون أوقع للسامعين، وأولى الحفظ والإتقان من فقهاء الصحابة يُرعون كلامه سمعا ويستوفونه حفظا، ويؤدّونه على اختلاف جهاته، فيجتمع لذلك في القضية الواحدة عدةُ ألفاظ تحتها معنى واحد.

وقد يتكلم الرسول صلى الله عليه وسلم في بعض النوازل وبحضرته أخلاطٌ من الناس، قبائلهم شتى، ولغاتهم مختلفة، ومراتبهم في الحفظ والإتقان غير متساوية، وليس كلهم يتيسر له ضبط اللفظ وحصره، وإنما يستدرك المراد بالفحوى، ويتعلّق منه بالمعنى، ثم يؤدّيه بلغته التي نشأ عليها، ويعبر عنه بلسان قبيلته، فيجتمع في الحديث الواحد إذا اتشعبت طرقُه عدة ألفاظ مختلفة، مُوجبُها شيءٌ واحدٌ، ولكثرة ما يَرِدُ من هذا ومن نظائره، يقول أبو عبيدة: " أعيانا أن نعرف – أو نحصي – غريب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وكان الصحابة رضي الله عنهم يفهمون جُلّ حديث نبيهم صلى الله عليه وسلم، وما خفي عليهم منه سألوه عنه، وأزالوا الإشكال عنه، وبعد انقضاء عصرهم، مضى المسلمون فاتحين يُبلّغون رسالة الله في الأرض، ومن الطبيعي أن يختلطوا ويختلط أولادهم بالأمم الأخرى، فتمتزج الألسنة، ويغيب عصرُ الفصاحة، وتضعُف سُبلُ المحافظة عليها، مع استمرار الاتصال بالأمم الأخرى، ودواعي امتزاج الألسنة والشعوب.

وأمّا عن بداية التصنيف في هذا العلم، فإذا كنا قد وجدنا من ينسب إلى الصحابي الجليل ابن عباس رضي الله عنهما شيئاً من ذلك فيما يتعلق بغريب القرآن (10)، فإننا لا نجدُ من يَنسُب إليه أو إلى أحد معاصريه أو تلاميذه شيئاً في غريب الحديث.

والواقع أنّ حركة التأليف والمساهمة في تأسيس معاجم شرح غريب الحديث تبدأ من أواخر القرن الثاني الهجري، وقد ترك طائفة من علماء اللغة المتقدمين مصنفات أو شذرات مختصرة فيه، وبعضها كان في وُريقات ككتاب أبي عبيدة معْمر بن المثنى، إذ وصفه ابن الأثير بقوله(11): "كتابا صغيرا ذا أوراق معدودات". وبعض هذه المصنفات وصل إلى خمسة وأربعين ألف ورقة، كما وصف ابن خلّكان كتاب أبي بكر بن الأنباري(12).

ويَنسُب الحاكم النيسابوري (13) إلى النضر بن شُميل المازني المتوفى سنة 203ه أول مصنّف في غريب الحديث. ويقول في وصفه:"هو عندنا بلا سماع". ومن العلماء الذين تركوا مصنفات في هذا الحقل قطرب المتوفى سنة 206ه،وأبو زيد الأنصاري(14) المتوفى سنة 215ه،

والأصمعي (15) المتوفى سنة 216ه، وذكر الخطيب البغدادي (16)أنّ أوّل من صنّف في هذا الفن هو: أبو عبيدة مَعْمرُ بن المثنى المتوفى سنة 210ه، ويؤيده في ذلك لفيفٌ من المؤرخين، كياقوت (17)وابن الأثير والسيوطي(18).

وقد يكون أبو عدنان عبد الرحمن بن عبد الأعلى السُلمي سابقا لأبي عبيدة؛ لأنه كان معاصرا ليونس بن حبيب أستاذ أبي عبيدة، إذ يقولون:"إنّ له كتابا في غريب الحديث ذكر فيه الأسانيد، وصنّفه على أبواب السنن والفقه، إلا أنه ليس بالكبير" (19) وكتاب أبي عدنان هذا دليلٌ واضح على أنّ الاعتماد على الرواية والأسانيد في نقل تفسير الألفاظ كان المنطلق الذي انطلقت منه بواكير المؤلفات في غريب الحديث.

قال ابن الصّلاح:" أصل الإسناد أولا خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة، وسُنّة بالغة من السنن المؤكدة، رُوّينا من غير وجه عن عبد الله بن المبارك رضي الله عنه أنه قال: الإسناد من الدين، لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء (20) ويُعدّ كتاب"غريب الحديث" لأبي عبيد القاسم بن سلام (21) المتوفى سنة 224ه أول كتاب وصلنا في هذا الفن، يقول هلال بن العلاء الرّقّي (22) :"مَنّ الله على هذه الأمة بأربعة، وعدّد منهم: أبا عبيد إذ فسّر غرائب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "وقد حظي كتاب أبي عبيد بتقدير وافر لدى علماء الغريب، يقول ابن قتيبة (23) :"وقد كان تعرُّف هذا وأشباهه عسيرا فيما مضى على طلبة العلم، لحاجته إلى أن يُسأل عنه أهل اللغة، ومن يكمل فهمُه منهم ليفسر غريب الحديث ووُفق معانيه وإظهار غوامضه قليل، فأمّا في زماننا هذا فقد كُفي حملةُ الحديث مؤونة التفسير والبحث بما ألّفه أبو عبيد".

يبدأ أبو عبيد كتابه بسند مطوّل يذكر فيه حديث "زُويت لي الأرض فأُريت مشارقها ومغاربها " فيتحدث عن معاني مادة "زوى". وينقل شرحها من كتاب أبي عبيدة معْمر بن المثنى الذي تقدّمه، ويستشهد بالشعر، ويسرد أقوال العلماء من أمثال: أبي زياد الكلاعي وأبي عمرو الشيباني والكِسائي.

وقد نهج أبو عبيد منهج البدء بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم من غير أن يراعي ترتيبا معينا في سَرْدها، وقد رواها بالأسانيد، واستغرقت هذه الأحاديث قسما كبيرا من كتابه، ثم أتبعها بالأحاديث المنسوبة للصحابة، فيبدأ بروايات الخلفاء الأربعة من خلال الجزء الثالث (24)

، ثم يبدأ الجزء الرابع بأحاديث الزبير (25) ، فطلحة رضي الله عنهما حتى تكمل أحاديث العشرة المبشرين بالجنة، ثم يذكر أحاديث ابن عباس، فخالد بن الوليد رضي الله عنهما وغيرهم من الصحابة، ثم أحاديث الصحابيات (26)، فالتابعين (27)، ويختم كتابه (28) بأحاديث لا يُعرف أصحابها.

أمّا كتاب" غريب الحديث " لعبد الله بن مسلم بن قتيبة (29) المتوفى سنة 276هـ، فقد أفاد من صنيع من تقدّمه، ويرى ابن قتيبة أنّه وجد جملة من الأحاديث عند أبي عبيد مُفسّرة على نحو مجانب للصواب، فخالفه في تفسيرها، وأورد أحاديث لم يذكرها سَلَفُه. وقد ابتدأ بتفسير الألفاظ الدائرة بين الناس في الفقه وأبوابه، ثمّ شرع في تفسير غريب أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثمّ تلاها أحاديث الصحابة فالتابعين، ومن بعدهم، وبعض الخلفاء، ثمّ أفرد باباً لتفسير غريب أحاديث النساء، ثم ختم الكتاب بذكر أحاديث غير منسوبة، سمع أهلَ اللغة يذكرونها ولم يحدد ابن قتيبة ضابطَ الغريب عنده، بيد أنّه كان يُورد أحاديث فيها مشكل، وكان يحضّ على معرفة معناها حتى لا يقع في الصدر عارضُ الشك فيها.

وقد وصلتنا المجلدةُ الخامسة من غريب الحديث للإمام أبي إسحاق إبراهيم ابن إسحاق الحربي (30) المتوفى سنة 285هـ، وقد حاول (31) أن يجمع في كتابه بين طريقة المحدّثين، وهي جمع الأحاديث على المسانيد، أي: الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق صحابي، وطريقة اللغويين، وهي نظام التقاليب والمخارج من الحلق، فأول الحرف حروف الحلق، ثمّ الأقرب-فالأقرب، ثمّ تُقلّب الكلمة التقاليب الستة، ويبيّن المهمل والمستعمل من تقاليبها. وقد أطال الحربي كتابه بالأسانيد وسوْق المتون بتمامها، ولو لم يكن في المتن من الغريب إلا لفظة واحدة(32).

ثمّ يأتي كتاب السَرَقُسْطي (33) القاسم بن ثابت المتوفى سنة 302هـ"الدلائل في غريب الحديث"وقد بدأ بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ثم الصحابة، مقدّما الخلفاء، فالعشرة، فالتابعين، وقد أفاد السَرَقُسْطي من جهود سابقيه، وأورد أقوالهم في تفسير ما يُورده من الغريب، وكان من منهجه الاستطراد والابتعاد عن أصل المعنى الذي شرع فيه. أمّا كتاب "غريب الحديث"للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي (34) المتوفى سنة 388هـ فقد كان يورد الحديث، ثمّ يتبعه بسنده، ثمّ يفسر غريبه، ويؤيد تفسيره بحديث آخر أو بآية

كريمة أو بشعر عربي فصيح، وحاول أن يستدرك على الكتب التي تقدّمته، وقد بدأ بتفسير أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فالصحابة فالتابعين، وألحق بها مقطعات من الحديث لم يجد لها في الرواية سندا، وختم الكتاب بإصلاح ألفاظ من مشاهير الحديث يرويها عوامّ النقلة، يقول في مقدمته (35)" ثم إنّه لمّا كثُر نظري في الحديث، وطالت مجالستي أهلَه، وجدت ألفاظا غريبة، لا أصل لها في كتابي أبي عبيد وابن قتيبة، ولم أزل أتتبّع مظانّها وألتقط آحادها، وأضمّ نشرها، حتى اجتمع منها ما أحبّ الله أن يوفق له، ونحوتُ نحوهما في الوضع والترتيب".

ثمّ يأتي كتاب "الغريبين" لأبي عبيد أحمد بن محمد العبدي الهَرَويّ (36) المتوفى سنة 401هـ، وهو أحد مصدرَين أفاد منهما ابنُ الأثير في"النهاية"، وقد بدأ بتفسير غريب القرآن، ثمّ ثنّى بغريب الحديث وآثار الصحابة والتابعين، وكان ينقل كثيرا عن أئمة الحديث واللغة قبله، وعُني بالأسانيد، وكان يأخذ من الحديث اللفظة الغريبة فيفسرها فإن اشتمل الحديث على أكثر من كلمة غريبة فرّق الألفاظ على المواد، ثمّ مضى يفسّر كل غريب في مكانه، وقد رتّبه وفق حروف المعجم، وهو أول كتاب وصلنا ينحو فيه مؤلّفُه هذا المنحى، وقد سبقه إلى ذلك شمر بن حمدويه المتوفى سنة 255هـ، في كتابه"الجيم"الذي قال فيه ياقوت(37):"رتّبه على حروف المعجم، ابتدأ فيه بحرف الجيم، لم يسبقه إلى مثله أحدٌ تقدّمه، وأودعه تفسير القرآن وغريب الحديث".

يقول الهَرَويّ (38) في مقدمته: " ونعمل لكل حرف بابا، ونفتح كل باب بالحرف الذي يكون أوله الهمزة ثمّ الباء ثمّ التاء إلى آخر الحروف". ويقول (39) :"وكنت أرجو أن يكونَ سعْيي إلى جمعها، وضمّ كلّ شيء إلى لفقه (40) منها، على ترتيب حسن واختصار كاف، سابقٌ، فكفاني مؤونة الدأب وصعوبة الطلب، فلم أجد أحدا عمل ذلك إلى غايتنا هذه".

أمّا كتابُ الحافظ أبي موسى محمد بن أبي بكر بن أبي عيسى المديني الأصفهاني (41) المتوفى سنة 581هـ، فهو" المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث"، وكان ثاني مصدرَين من مصادر ابن الأثير في"النهاية"بعد كتاب"الغريبين"المتقدم. قال ابن الأثير في مقدمته(42): " كان أبو موسى إماما في عصره، حافظا متقنا تُشدّ إليه الرّحال، وتُناط به من الطّلبة الآمالُ، ولمّا وقفت على كتابه وجدته في غاية الحسن والكمال".

وقد استحسن أبو موسى كتاب الهرويّ المتقدم، بيد أنّه (43) وجد كلماتٍ كثيرة شذّت عن

كتابه"إذ لايُحاط بجميع ما تكلّم به من غريب الكلم، فلم أزل أتتبّع ما فاته، وأكتب ما غفل عنه"، وذكر في مقدمته أنّ شرطه في كتابه: الاختصار، إلا إذا اختلّ الكلام دونه، وتركُ الاستشهاد بالشواهد الكثيرة إلا إذا لم يُستَغن عنها، واختار أبو موسىٰ منهج الترتيب الهجائي وفْقَ الحرف الأول، وهو المنهج الذي استقرت عليه المصنفات التالية للهروي.

ويُعدّ كتاب"الفائق في غريب الحديث"لـ جار الله محمود بن عمر الزمخشري (44) المتوفى سنة 538ه، من المصنفات المهمة في منهج الترتيب الهجائي وفْق الحرف الأول، غير أنه كان يُورد نص الحديث كاملا، ولا يوزّعه وفْق حروف كلمات ألفاظه، ومن هنا كان البحث عن الغريب المنشود يعتوره بعض العسر، وقد لاحظ ابن الأثير (45) في مقدمة نهايته ذلك فقال:"ولكن في العثور على طلب الحديث منه كُلفةٌ ومشقة... فيجيء شرح كل كلمة غريبة يشتمل عليها ذلك الحديث في حرف واحد من حروف المعجم، فترد الكلمة في غير حرفها، وإذا تطلّبها الإنسانُ تعبَ حتى يجدَها".

وتتوالى بعد ذلك المصنفاتُ مختارةً منهج الترتيب الهجائي وفْقَ الحرف الأول، ويعدّ كتاب أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي [46] المتوفى سنة 597ه من أهم المصنفات في القرن السادس، وكان يأمل -كما ذكر في مقدمته- (47) أن يُغني كتابه عن جميع ما صُنّف في ذلك، وقد اعتمد اعتمادا كبيرا على كتاب الهروي.

وآخرُ مصنف من المصنفات المهمة هو: " مجمع بحار الأنوار في غرائب التنـزيل ولطائف الأخبار"للشيخ محمد طاهر الصديقي الفتّني (48) المتوفى سنة 986ه، وقد سار فيه على منهج الترتيب الهجائي وفْقَ الحرف الأول، وهو المنهج الذي استقرت عليه المؤلفات في هذا الفن، وقد أفاد من التراث الضخم الذي تركه السلف في غريب الحديث والأثر، ويُقرّ في مقدمته (49) بأنّ كتاب"النهاية " كان أصلا له " ولم أغادر منه إلا ما ندر أو شاع بينهم وانتشر، وأضم إلى ذلك ما في ناظر عين الغريبين من الفوائد، وما عثرت عليها من غير تلك الكتب من الزوائد"، وقد وضع الفتّني رموزاً لبيان ما اقتبسه من كل مصدر من المصادر التي أشار إليها في مقدمته، وجاء كتابه في خمسة مجلدات كبيرة.

المطلب الثاني: منهج العلماء في تأسيس معجمية غريب الحديث- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير نموذجا -:

1-التعريف بابن الأثير: هو المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني الجزري، الموصلي الشافعي، أبو السعادات مجد الدين، المعروف بابن الأثير (50)، و"الأثير"لقبٌ لوالده أبي محمد بن عبدالكريم، وقد اتفق المؤرخون على تحديد تاريخ ولادته بسنة 544ه، وذلك في أحد الربيعَين بجزيرة ابن عُمر(51).

ومن شيوخه(52): عبدالوهاب بن هبة الله بن أبي حبّة البغدادي، المتوفى سنة 558ه. وقد قرأ عليه صحيح مسلم بالموصل (53) ، وأبي بكر يحيى بن سَعْدون المغربي القرطبي، المتوفى سنة 567ه (54)، وناصح الدين أبي محمد سعيد بن المبارك بن الدهان البغدادي، صاحب"الغُرّة في شرح اللمع"، المتوفى سنا 569ه (55)، وأبي الفضل عبدالله بن أحمد الطوسي، المتوفى سنة 578ه (56)، وعبدالمنعم بن عبدالوهاب الحرّاني، المتوفى سنة 596ه (57)، وأبي الحزم مكي بن ريّان الماكسينيّ الضرير، المتوفى سنة 603ه (58)، وعبدالوهاب بن سُكينة، المتوفى سنة 607ه. (59)

ومن تلاميذه: أبو الحسن علي بن يوسف القِفطيّ، المتوفى سنة 646ه (60)، والشهاب القوصي إسماعيل بن حامد، المتوفى سنة 653ه (61)، وتاج الدين عبدالمحسن بن محمد شيخ الباجربقي (62) وروى عنه بالإجازة الشيخ فخر الدين بن البخاري (63)، روى عنه ولده، ولم يُسمّه المؤرخون.(64)

صفاته:

ذكر المؤرخون للمبارك بن الأثير صفات العلم والفضل والعقل والورع والبر والإحسان، وقد جمع بين التمكن من علوم العربية والقرآن والحديث والفقه، وصنّف في ذلك تصانيف مفيدة،كما كان شاعراً، أنشأ رباطاً بقرية من قرى الموصل، ووقف أملاكه عليه (65)، وكان شافعيّ المذهب، وقد عرض له مرضٌ كفّ يديه ورجليه ومنعه الكتابة، فكان يُحمل في محفّة، فانقطع في بيته.(66)

روى الكتب نازلاً، فأسند صحيح البخاريّ عن ابن سرايا عن أبي الوقت، وصحيح مسلم عن أبي ياسر بن أبي حبّة عن إسماعيل بن السمرقندي عن الثّنكتي عن أبي الحسين عبدالغافر، ثمّ عن ابن سُكينة إجازة عن الفُراوي، والموطأ عن ابن سَعْدون، حدّثنا ابن عتاب عن ابن مُغيث

فوهم، وسنن أبي داود والترمذي بسماعه من ابن سُكينة، وسنن النسائي، أخبرنا يعيش بن صدقة عن ابن محمويه.(67)

انتقل المبارك إلى الموصل سنة 565هـ، وتولى الخزانة لـ: سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، كما اتصل بالأمير مجاهد الدين قايماز بن عبدالله الزيني، وولي ديوان الإنشاء، ولم يزل في المَوْصل إلى أن مات (68)، ولكنه كان ينتقل في الولايات، وتفرّغ للكتابة في فترة مرضه، وكان يغشاه الأكابر والعلماء (69) مؤلفاته:

ترك المبارك قدراً كبيراً من المؤلفات العلمية(70)، وقد صنّف معظم كتبه في مدة مرضه، وكان عنده جماعة من الطلبة، يُعينونه عليها في الاختيار والكتابة (71)، منها:

-"منال الطالب في شرح طوال الغرائب"وهو مطبوع، والكتاب في شرح ما اختاره من الأحاديث المطوّلة الغريبة.

-"جامع الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم"جمع فيه بين الكتب الستة، ورتّبه على حروف المعجم، وهو مطبوع.

-"الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف"وهو في التفسير أخذه من تفسيري الثعلبي والزمخشري.

-"المصطفى المختار في الأدعية والأذكار".

-"المختار من مناقب الأخيار".

-"الشافي في شرح مسند الشافعي".

-"النهاية في غريب الحديث والأثر"وهو الكتاب الذي ندرسه، وقد وَصفه أهل الفنّ بأنّه"لم يُعهد نظيره في بابه"(72) وقد قال فيه السيوطي(73) "وهو أحسن كتب الغريب، وأجمعها، وأشهرها، وأكثرها تداولاً". وقد كان له قبولٌ وسيرورة، ونظمه شعراً(74) إسماعيل بن محمد بن بردس البعلي المتوفى سنة 785هـ، وسمّاه"الكفاية في نظم النهاية"، كما كتب صفي الدين محمود الأرموي(75) المتوفى سنة 723هـ عليه ذيلاً. كما أنّ للسيوطي ذيلاً عليه بعنوان"التذييل والتذنيب على نهاية الغريب". وهو مطبوع.

وفاته:

توفي أبو السعادات في مدينة الموصل يوم الخميس في ذي الحجة سنة ست وستمئة، ودفن

برباطه في درب دَرّاج.(76)

2-منهج ابن الأثير في كتابه " النهاية في غريب الحديث والأثر" :

اجتمع لابن الأثير قدرٌ غزيرٌ من نصوص الحديث والأثر، تحتاج إلى بيان ما فيها من غريب، كما تحتاج إلى منحى تنظيمي دقيق يجعل التعامل معها ميسوراً في مرحلة جمعها، ثم تحريرها وضبط الإحالة عليها، وفيما يعقب ذلك من مرحلة الإفادة منها، والعودة إلى مادة منشودة منها، ويتضح لنا منهجه في " النهاية "من خلال المعالم التالية:

1- إنّ اختيار منهج محدد يبدو أمرا لازما، ولاسيما أنّ طائفة من مصنّفات " غريب الحديث " من قبله تفتقد المنهج الميسّر المطّرد في تنظيم مادتها، ويعتورها ضروب من العُسر في استخراج حديث منها، فهل ينثر مادته من غير ترتيب معيّن، أو يذكر غريبه وفْق المسانيد، كما هي طريقة أبي عبيد وابن قتيبة في مصنفهما المتقدم:"غريب الحديث"، أو وفْق طريقة التقاليب والمخارج، كما هي طرف من طريقة أبي إسحاق الحربي في غريبه، أو وَفْق ترتيب الحروف الهجائية: أ، ب، ت، ث، ابتداءً من الحرف الأخير للكلمة، ثم العودة إلى الحرف الأول، كما هي طريقة الجوهري في"صحاحه"، أو وفْق ترتيب الحروف الهجائية من الحرف الأول للكلمة، كما هي طريقة الهروي في"الغريبين"والزمخشري في"الفائق"؟

لا ريب أنّ الخبرة الواسعة في الصناعة المعجمية التي عجمت عود مؤلف في القرن السابع؛ كابن الأثير، منحته خبرة واسعة في معالم كل طريقة ومحاسنها، وجعلته يُرجّح الطريقة الأخيرة، فهي يسيرة تتجاوز الصعوبات التي قد تكتنف الطرق الأخرى، فتَنْثُرُ المادة من غير ترتيب لا يُقرّه أحدٌ لعسر استخراج المادة المنشودة، وقد لا يُدرك المُراجع اسم الصحابي الراوي للحديث الغريب، كما أنه قد يجتهد طويلا في قراءة مسند معيّن للوقوف على حديث منشود، كما أنّ طريقة التقاليب والمخارج بما تحمله من صعوبة استخراج الغريب منها تجعله يتجنبها.

فقد اعتمد ابن الأثير على ترتيب المادة وَفْق الحروف الهجائية، وقد كان تحت هذا الترتيب ثلاثة اتجاهات معجمية:

أ- فثمة من يُرجّح اختيار الحرف الأخير من الكلمة بعد تجريدها من الحروف الزائدة، ورَدّ الحرف الأصليّ المحذوف، ثم العودة إلى الحرف الأول من الكلمة.

ب- وثمة من يرجّح اختيار الحرف الأول ابتداء، ثم الحرف الثاني فالثالث؛ لأنه يحقق سهولة

وسيرورة مباشرة في تصوُّر اللفظ المشود؛ وهذا الترجيح في اختيار الحرف الأول هو الذي مضى عليه ابن الأثير.

ج- أمّا الاتجاه المعجمي الثالث الذي عزف عنه صاحب " النهاية " فهو: أنّ الحديث الواحد قد يتضمن أكثر من مفردة عربية، فهل يسْرد النص كاملا وفق الترتيب الهجائي لأول لفظ غريب، ثم يذكر اللفظ الغريب الثاني في الموضع نفسه، كما فعل الزمخشري في"فائقه"، أو يُوزّع نصّ الحديث إلى مقطعات عديدة، فيذكر كل لفظ غريب وفْقَ ترتيبه الهجائي الأول؟ وهو الذي اختاره ابن الأثير.

إنّ اختيار ابن الأثير لهذا المنهج المعجمي الدقيق يجعله يتجاوز مظاهر العسر التي تكتنف الطرق الأخرى، فطريقة المسانيد يصعب معها الاهتداء إلى الموضع المطلوب، ولا سيما إن جهل المراجعُ اسم صاحب المسند، ولو عرفه لتعب في الوصول إليه، من خلال عشرات الأحاديث، التي يرويها ذلك الصحابي. وإن كان لدينا فهارس حديثة كاشفة، احتاج المراجعُ إلى الوقوف على أحاديث كل مادة ليصل إلى مبتغاه من حديث معيّن. وفي ذلك هدْرٌ كبير للوقت والجهد.

أمّا طريقة التقاليب والمخارج فقد ثبت من خلال تجربة الخليل في كتاب"العين"، والحربي في"غريبه" أنها وعْرة لا تتكشف المادة معها إلا بعد تعب ونصب. وأمّا طريقة الزمخشري في "فائقه" فتتميز بسهولتها لأنها تعتمد الحروف الهجائية، بيد أنّ المُراجع قد يجهل أول الحديث، فلا يتبيّن له موضع الغريب الأول الذي شرع فيه الزمخشريّ ليجعله منطلقه. فينثر ما فيه من غريب؛ وذلك لأنّ مادة الغريب في الحديث الواحد متعددة.

إنّ الطريقة التي توخّاها ابنُ الأثير في معجمه "النهاية" تجعل من يقف على عتبته يصل إلى مبتغاه على نحوٍ ميسور. فلا يلزمه إلا أن يُجرّد اللفظة الغريبة من زوائدها، أو يردّ لها الحرف المحذوف الأصلي، ثم يمضي في الوصول إلى الحرف الأول منها فالثاني، فالثالث، وفْقَ ترتيب الحروف الهجائية المعهود: أ، ب، ت، ث. وقد رافق هذا الاختيار معالمُ كثيرة لتيسير تناوُل معجمه، كما سيتبين لنا في تفصيل منهجه.

يبدأ معجم ابن الأثير بحرف الهمزة، ويندرج تحته عنوان بارز:"باب الهمزة مع الباء"، وتحت هذا العنوان مادة أبب، ثم مادة أبد، ثم مادة أبر، فمادة أبس، فمادة أبض، وهكذا تبقى، ويراعي ترتيب الأوائل فالثواني فالثوالث داخل المادة الواحدة إن توافرتْ معها مادة من

الأحاديث تُوفّي ذلك.

2- دأب ابن الأثير على أن يكتفي بشرح اللفظة الغريبة التي تدخل في المادة اللغوية التي عقدها، فإن ورد غريبان أو أكثر في الحديث نفسه اكتفى بغريب الباب، وإن أراد المُراجع معرفة باقي غريب الحديث الذي أورده فَلْيتتبّعْ مَظانّه في سائر المواد وَفْقَ حرفه الهجائي، بيد أنّ ابن الأثير في أحيان نادرة يضطر إلى شرح ألفاظ الحديث مجتمعةً"فإنّه إذا فُرّق لا يكاد يُفهم الغرض منه".

3- وقد يرى أحد علماء الغريب رأياً في جذر لفظةٍ من ألفاظ الغريب، فيورد ابن الأثير المادة اللغوية وفْقَ مذهب من يخالفه، ويُعقّب على ذلك بما يراه من وجهته صحيحاً، فقد أورد حديث حذيفة (77)"لتَبْتَلُنّ لها إماماً" أي: لتختارُنّ"، ثم قال:"هكذا أورده الهرويُّ في هذا الحرف، وجعل أصله من الابتلاء: الاختبار، وغيرُه ذكره في الباء والتاء واللام، وكأنه أشبه".

وقد يكون للّفظ الغريب روايتان أو أكثر، فيحرص ابن الأثير على ذكْر هذه الروايات مكررةً بحسب مواردها اللغوية، بناءً على أنّ المُراجع قد يستحضر رواية معينة، ولا يستحضر غيرها، فيعود إلى موضعها ليجدَها. فقوله صلى الله عليه وآله وسلم(78):"أعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْن"شرحه في مادة (كون) ثم قال:"ويروى بالراء: الكَوْر. وقد تقدم".(79)

4- ومن الطبيعي أن تحْظى بعض المواد اللغوية بغزارة أحاديثها وشواهدها، واختلاف دلالتها واستعمالاتها ومقاصدها، فتجد في المادة اللغوية الواحدة عشرات النصوص من أحاديث الغريب، وذلك من مثل: هود، خلف، ركب، دين، دخل، سمع، وفي مقابل ذلك قد لا يتوافر في بعض المواد أكثر من حديث غريب واحد في المادة من مثل:رصح، رصغ، رتت، رتم، رثأ.

وقد يورد مادةً لغويةً ولا يذكر ضمنها أيّ حديث، وإنما يشير إلى تكرار ذكر لفظة معينة، فيتحدث عنها مفردةً، كقوله في"هَلُمّ(80):"قد تكرر في الحديث ذكر"هَلُمّ"ومعناه: تعال، ومنه لغتان، فأهل الحجاز يُطْلقونه على الواحد والجميع والاثنين والمؤنث، بلفظ واحد مبني على الفتح، وبنو تميم تُثنّي وتجمع وتؤنث فتقول: هَلُمّ وهَلُمّي وهَلُمّا وهَلُمُّوا".

5-ومن معالم منهجه أنه يحرص على تعيين موارده التي يستقي منها، وذلك شأن المحقق الذي يسبر هذه الموارد، ويقف على أقوال صاحبها؛ ليمكّن المُراجعَ من مراجعة المسائل العلمية في مظانّها، ويدرس ما هو مبثوث فيها من أقوال، ففي الحديث (81) "أتاكم أهل اليمن هم أرقّ

قلوباً وأبخعُ طاعة"، يقول:"أي: أبلغُ وأنصحُ في الطاعة من غيرهم، قال الزمخشري:"هو من بخع الذبيحة إذا بالغ في ذبحها، وهو أن يقطع عظْم رقبتها ويبلُغ بالذبح البخَاع -بالباء- وهو العِرْقُ الذي في الصُلب، والنَخع بالنون دون ذلك. هكذا ذكره في كتاب"الفائق في غريب الحديث"، وكتاب"الكشاف"في تفسير القرآن، ولم أجده لغيره، وطالما بحثت عنه في كتب اللغة والطب والتشريح فلم أجد البخاع بالباء مذكوراً في شيء منها".

وقد يُعيّن موارده من خلال تحديد المصنّف الذي أخرج الأثر، فقد أورد حديث (82) ابن عباس -رضي الله عنه -"أرض الجنة مسْلوفة". ثم قال:"هكذا أخرجه الخطابي والزمخشري عن ابن عباس، وأخرجه أبو عبيد عن عُبيد بن عمير الليثي، وأخرجه الأزهري عن محمد بن الحنفية".

ومن الطبيعي أن يستقي ابن الأثير جُلّ النصوص التي يستشهد بها على مادته اللغوية، من الحديث الشريف نفسه، وكان من منهجه أن يسوق شواهد عديدة منه، تتفق وحديث الباب، الذي انطلق منه، وكان يحرص على بيان الصلة التي تربط بين هذه الشواهد، ففي مادة (حثل) يورد حديث(83):"لا تقوم الساعة إلا على حُثالة من الناس"، ثم يقول:"الحُثالة الرديء من كل شيء"، ومنه الحديث:"كيف أنت إذا بقيت في حُثالة من الناس"يريد: أراذلهم، ومنه الحديث:"أعوذ بك من أن أبقى في حَثْلٍ من الناس".

ولم يكن ابن الأثير يحرص على أن يستشهد على معنى الغريب الذي عقد له المادة اللغوية بالقرآن الكريم، ومن هنا ندرت الشواهد القرآنية في "النهاية".

ومن ذلك استشهاده بقوله تعالى: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هـؤُلاء وهـؤُلاء مِنْ عطاء ربِّك وما كَانَ عطاء ربِّك مَحْظُوراً﴾ الإسراء-20، على مادة الحظْر بمعنى المنع (84). واستشهاده بقوله تعالى: ﴿ فلمَّا استَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً ﴾ يوسف-80، على مادة (خلص) (85) أي: تميّزُوا عن الناس متناجين

وقد يركن إلى بعض القراءات المتواترة أو الشاذة ليُجلي المعنى الذي يذهب إليه في شرح غريبه، ففي مادة (طيف) يقول(86):"وأصل الطَّيف الخيال، ثم استعمل في الغضب ومسّ الشيطان ووسوسته. ويقال له: طائف. وقد قرئ هما قوله تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ الأعراف-201.(87)

أما شواهده من الشعر العربي الفصيح، فقد عني بها ابن الأثير عناية واضحة، وكان يوردها في

المادة اللغوية التي عقدها، فيشرحها أو يُوردها ليؤكّد معنىً ذهب إليه في شرح غريبه، ومن ذلك قوله في مادة (بدر) في حديث المبعث" فرجع بها ترجُفُ بوادرُه" (88)، هي جمع بادرة، وهي لَحْمَةٌ بين المَنكِب والعنق، والبادرَة من الكلام الذي يسبق الإنسان إليه في الغضب، ومنه قول النابغة:

ولاخير في حلْم إذا لمتكن ل بوادر تحمي صفوه أن يكدّرا

وعن الإشكالية التي أشرت إليها في المقدّمة، والمتعلّقة بسبب تسمية أصحاب المصنّفات كتبهم "بالغريب"، مع أن مادة "غريب" لا تختزن في مضامينها معنى الشرح والتفسير والتوضيح، واستناداً إلى ما سبق من أمثلة وشواهد، يلاحظ أن اسم " غريب" قد أطلق على الألفاظ اللغوية في مجال من مجالات المعرفة الموضوعة للشرح، كالقرآن الكريم والحديث الشريف، ولم يقع التمييز فيها بين عربي فصيح وغريب نادر، أو غريب مستغلق نافر، وعليه فيكون مقصودهم في هذا الباب المعنى العام، وهو "شرح أو تفسير ألفاظ القرآن"، "وشرح ألفاظ الحديث". وتوضيح ذلك فيما يلي:

1-إن محتويات مؤلفات "الغريب" ليست من الغامض النافر، بل مما عرفه العربي واستعمله ووعاه، يقوي ذلك المقولة التي كان يرددها ابن عباس في تفسير مواده، وهي" هل تعرف العرب ذلك؟"، ومن شواهده تفسير " الوسيلة " في قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الّذين آمنُواْ اتّقُواْ اللّه وَابْتَغُواْ إِليه الْوَسِيلَةَ﴾ المائدة35، قال ابن عباس رداً على نافع "الحاجة" (89)، ثم سأله: "أتعرف العرب ذلك؟ "، أجابه: نعم، أما سمعت عنترة العبسي، وهو يقول:

إنّ الرجالَ لهم إليك وسيلةٌ إنْ يأخذوك تُكحّلي وتُحضّبي (90)

2-إن بعض ما جاء في كتب الغريب هو من الألفاظ العامة التي يشترك في معرفتها جمهور أهل اللسان العربي، وهو مما يدور في الخطاب، تناقلوه فيما بينهم وتداولوه، وتلقفوه منذ الصغر لضرورة التفاهم من أدلة ذلك ما أثبته الراغب الأصفهاني في غريبه، من نحو "غنم" قال في تفسيره:"الغنم معروف. قال الله تعالى: " ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما" الأنعام – 146. والغنم إصابته والظفر به، ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العدى وغيرهم (91). فهل هذا غريب مستغلق؟؟

3-إن إطلاق مصطلح "غريب" على ما جاء في القرآن يتناقض مع البيان الإلهي لأن ما جاء في القرآن فصيح بعيد عن الغرابة والشواذ، مصداقاً لقوله عز وجل: ﴿ بلسانٍ عربيٍّ مُبين ﴾ الشعراء-195وقوله: ﴿ إنّا أنزلناهُ قُرآناً عربيّاً لّعلّكُمْ تعقلُون﴾يوسف-2، وكذلك ما جاء على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم أنا أعْرَبُكم،أنا من قريش ولساني لسان بني سعد (92). فهل لغة القرآن غريبة مبهمة، أم ما أودع في كتب الغريب قصد به شرح المفردات وتفسيرها؟!

4-إن أصحاب مصنفات "الغريب" قصدوا تفسير الألفاظ حقيقة لا البحث عن الغريب في عرف البلاغيين كما توحي التسمية، يقوي ذلك اعتراف أصحاب المصنفات أنفسهم في حقيقة عملهم، قال الراغب الأصفهاني في مقدمة غريبه، يوضح خطته ويصور منهجه: "وذكرت أن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه... وقد استخرت الله تعالى في إملاء كتاب مستوفى فيه مفردات ألفاظ القرآن على حروف التهجي، فتقدم ما أوله الألف ثم الباء".(93)

ويشبهه ما نقل عن أبي عبيد في مقدمة كتابه: " عن ابن عباس أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر – قال أبو عبيد – يعني كان يستشهد على التفسير" (94)، ففي كلام ابن عباس دليل على أن المقصد شرح مفردات القرآن، وتفسيرها تفسيراً لغوياً، مستشهدا على ما يقوله بالشعر العربي القديم".(95)

5-إن عمل أصحاب الغريب عمل معجمي، غايته شرح معاني المفردات وتوضيحها بعامة، لا حصر الغريب، يصدق ذلك قول ابن قتيبة في مقدمة غريبه: "قد كنت زماناً أرى أن كتاب أبي عبيد قد جمع تفسير غريب الحديث، وأن الناظر فيه قد يستغني به، ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة فوجدت ما تركته نحواً مما ذكر أو أكثر منه، فتتبعت ما أغفل وفسرته على نحو ما فسر... وأشبعت ذلك بذكر الاشتقاق والمصادر والشواهد من الشعر، وكرهت أن يكون الكتاب مقصوراً على الغريب، فأودعته من قصار أخبار العرب وأمثالها، وأحاديث السلف وألفاظهم ما يشاكل الحديث أو يوافق لفظه لفظه، لتكثر فائدة الكتاب، ويمتع قارئه، ويكون ذلك عوناً على معرفته وتحفظه. (96)

ولا شكّ أن العلماء الذين ألّفوا في "الغريب" لم يجهلوا معنى الغريب، ولكن هناك ملابسة يمكن على ضوئها تفسير مذهب العلماء في هذه التسمية، وهي:

1-إن ألفاظ العربية، بعد اجتماع العربية في لغة قريش، لم تحمل الدلالة الواحدة عند القبائل المختلفة، فقد تحمل لفظة معنى في قبيلة، ومعنى مخالف في أخرى، ويتجلّى هذا الاختلاف في مادة "قرء" قال المبرد: أهل الحجاز يرون "الإقراء" الطهر، وأهل العراق يرونها الحيض، وأهل المدينة يجعلون عدد النساء الأطهار (97)، وهذا اعتور العربية الإعراب والكل، نتيجة اجتماع القبائل، فلفظةٌ تتداول على لسان قوم، تعتبر غريبة لدى قوم آخرين، وقد ألمح ابن فارس إلى ذلك، قال: "كل هذه اللغات مسمّاة منسوبة وهي وإن كان لقوم دون قوم فإنها لما انتشرت تعاورها كلٌ، ومن الاختلاف اختلاف التضاد، وذلك قول حِمْيَر للقائم: ثبْ أي اقعدْ".(98)

2-إن العرب، في أحيان كثيرة، لا يفهمون كلام بعضهم بعضاً، وبخاصة عندما تتكلم كل قبيلة لغتها الخاصة بها، لأن كل لغة تختلف عن غيرها من لغات القبائل بأمور (99) يدعم ذلك ما روي عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان يخاطب وفد بني نهد، قال:"يا رسول الله نحن بنو أبٍ واحدٍ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره، فقال: " أدّبني ربي فأحسن تأديبي، وربيتُ في بني سعد" ، فكان صلى الله عليه وسلم يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وتباين بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم، كلاً منهم بما يفهمون، ويحادثهم بما يعلمون".(100)

واستناداً إلى هذه الملابسة اللغوية الحاصلة من اجتماع القبائل العربية، وبخاصة بعد الإسلام، أصبحت اللفظة المتداولة في وسط عربي، غريبة لدى الآخرين، ومن هنا يبرز سبب استعمال مصطلح "غريب" في أسماء المصنفات، فالغرابة نسبية، ولهذا يمكن القول إن حد الغرابة في اللفظة يتغير بتغير القبيلة، فما تصدق عليه الغرابة من الألفاظ في قوم وعصر لا تصدق عليه في قوم آخرين.

وجملة القول: فإن من أعظم ما ابتكره العلماء حماية اللغة والحفاظ عليها حية نامية متطورة، تأليف المعاجم، في مختلف اللغات، وفي مختلف التخصّصات، تحفظ مفرداتها وألفاظها، وتتولى تفسيرها وتوضيحها، وتتكفل ببيان صور استعمالاتها، وتميز الأصيل من الدخيل، ومن هنا جاءت الحاجة إلى تصنيف المعاجم وقواميس اللغة على مختلف أنواعها وأشكالها ومناهجها.

والعلماء الذين اعتنوا بغريب الحديث، يكونون قد ساهموا مساهمة نوعية في صناعة هذا النوع من المنهج الفكري المتعلق بالمعجمية، وتميزت جهودهم بالمتابعة والتواصل والتكامل، بهدف خدمة الباحث، في مجال اللغة عموما، والحديث الشريف خصوصا، بما يغني حصيلته اللغوية وينميها، ويجعلها مرنة طيعة في مجالي الأخذ والعطاء، وفي مجالات الاستيعاب والفهم والتوسع الفكري والنمو العقلي والمعرفي، وفي مجالات التعبير والعمل الإبداعي والإنتاج الثقافي.

الهامش :

1- أنظر: العين، الخليل بن أحمد، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والاعلام العراقية، 1980، ص:709.وتهذيب اللغة، الأزهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق محمد عوض مرعب، ط1، 2001م، 112/8. و جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، تحقيق رمزي البعلبكي،ط1، دار العلم للملايين،1987م 268/1. وتاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، الطبعة الثالثة، مكة المكرمة، 1982 م 191/1. والمفردات، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، دار القلم، دمشق، 1412هـ 1992م، 604. ولسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت ط1، 1410هـ-1990م،637/1. وتاج العروس: (غرب) 3/ 456. والمعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وزملاؤه، المكتبة الإسلامية، إستانبول، تركيا، (دت، در) 653

2- اختصار علوم الحديث، لابن كثير، ومعه الباعث الحثيث للشيخ أحمد شاكر، ص: 141 ، ط دار التراث، ط 3، 1979/1399

3- التقريب للإمام النووي، مع تدريب الراوي، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، الطبعة الثانية، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، 1392هـ-1972م، 184/2.

3- التقريب، 185/2.

4- تدريب الراوي، جلال الدين السيوطي تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، الطبعة الثانية، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، 1392هـ-1972م: 185/2.

5- نخبة الفكر، ص:47-48 ، ط المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ، ط 3 ، د ت

6- التقريب للإمام النووي، 185/2.

7- تدريب الراوي: 185/2-186

8- غريب الحديث، أبو سليمان حمد الخطابي، تحقيق: د. عبدالكريم العزباوي، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، 68 /1.

9- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة،(55/2).

10-النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن الأثير، تحقيق: د. محمود الطناحي، وزميله، باكستان، مطبعة السنة المحمدية، (دت، در): 1 / 5.

11-وفيات الأعيان، أبو العباس بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت (دت، در): 342/4.

12-معرفة علوم الحديث، الحاكم النيسابوري، مكتبة الهلال، بيروت، 1409هـ 1989م: 121، والرسالة المستطرفة، محمد بن جعفر الكتاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الخامسة، 1993م:ص:154

13-الفهرست، ابن النديم، دار المسيرة، الطبعة الثالثة، 1988 م: ص: 96 ، والخطابي، المصدر السابق: 49/1.

14-الفهرست: ص:96

15-الفهرست: ص:96.

16-تاريخ بغداد، أبو بكر الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (دت، در): 12/ 405.

17- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م، بيروت 2704/6

17-ابن الأثير ، المصدر السابق: 5/1.

18- بغية الوعاة في طبقة اللغويين والنحاة، بغية الوعاة، للحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله، تحقيق العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الطبعة الثانية، 1399هـ . 1978م:294/2.

19-تاريخ بغداد: 405/12. وأنظر: الفهرست: ص/51. و إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، 1406هـ- 1986م: 148/4

20-معرفة أنواع علم الحديث، ابن الصلاح، تحقيق عبد اللطيف الهيثم، وماهر ياسين الفحل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م : ص: 375.

21-أنظر ترجمته في: وفيات الأعيان: 61/4، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وزملائه، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية 1402هـ 1982 م : 10/ 490، وبغية الوعاة: 253/2

22- الحاكم النيسابوري، المصدر السابق: ص:121.

23- غريب الحديث، عبد الله مسلم بن قتيبة، تحقيق: د. عبدالله الجبوري بغداد، وزارة الأوقاف،1397هـ. 150/1 . وأنظر: تاريخ بغداد 12/ 405.

24- غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1396هـ 1976 م، مصورة عن طبعة حيدر آباد، الهند،(دت، در): 3/ 208.

25- أبو عبيد القاسم بن سلام، المصدر السابق: 4/ 1.

26- أبو عبيد القاسم بن سلام، المصدر السابق: 4/ 309

27-أبو عبيد القاسم بن سلام، المصدر السابق: 4/ 342

28- أبو عبيد القاسم بن سلام، المصدر السابق: 4/488.

29- أنظر ترجمته في : تاريخ بغداد: 10/170، وإنباه الرواة: 2/143، ووفيات الأعيان: 3/42.

30- أنظر ترجمته في: تاريخ بغداد: 6/ 27 ، وإنباه الرواة: 1/ 155 ، وسير أعلام النبلاء: 13/ 356.

31-أنظر مقدمة تحقيق كتاب" غريب الحديث" ، لأبي إسحاق الحربي، تحقيق: د. سليمان بن إبراهيم العايد، جامعة أم القرى، 1985 م: 1/ 95.

32- الرسالة المستطرفة: ص/ 154.

33- أنظر ترجمته في: طبقات النحويين، الزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الثانية، مصر: ص/284، والبغية: 2/ 252.

34- أنظر ترجمته في: وفيات الأعيان: 2/ 214 ، سير أعلام النبلاء: 17 / 23 ، وبغية الوعاة: 1/ 546.

35- غريب الحديث: 1/ 46

36- أنظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء: 17/146، طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، تحق: د. عبدالفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، مصر: 4/84، وبغية الوعاة: 1/371.

37- معجم الأدباء: 3/1420

38- الغريبين، أبو عبد أحمد بن محمد الهروي، تحقيق: د. محمود الطناحي، القاهرة، 1390هـ 1970 م: 6/1.

39- الهروي، المصدر السابق: 6/1.

40 اللفق: شقة من شقتي الملاءة.

41-أنظر ترجمته في : تذكرة الحفاظ، أبو عبدالله الذهبي، طبعة مصورة، دار إحياء التراث العربي، بيروت،(دت، در) : 4/1334، وطبقات الشافعية للسبكي: 6/160

42- النهاية: 1/9.

43-المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: الحافظ أبو موسى الأصفهاني المديني، تحقيق: د. عبدالكريم العزباوي، جامعة أم القرى، 1406هـ 1986 م: 1/3.

44-أنظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء: 20/151 ، والبغية: 2/279.

45-النهاية: 1/9

46-أنظر ترجمته في : وفيات الأعيان: 3 / 140، وسير أعلام النبلاء: 21 / 365.

47-غريب الحديث، أبو الفرج بن الجوزي، تحقيق: عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985 م: 1/ 4.

48-أنظر ترجمته في الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة العاشرة، 1992م: 6/ 172.

49- مجمع بحار الانوار في غرائب التنزيل و لطائف الاخبار، محمد طاهر الصديقي الهندي الفتني الكجراتي،

القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، 1993م: 1 / 24.

50-انظر: معجم الأدباء: 5 / 2268 ، وفيات الأعيان: 4 / 141 ، سير أعلام النبلاء: 21 / 488.

51-انظر معجم الأدباء 5 / 2268.

52-انظر في مشابهة: معجم الأدباء: 5 / 2269 ، طبقات الشافعية: 8 / 366.

53-انظر ترجمته في: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبدالحي بن العماد، مصر، مكتبة القدسي، 1350هـ: 4 / 293.

54-انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: 6 / 171 ، بغية الوعاة: 2 / 334.

55-انظر ترجمته في: إنباه الرواة: 2 / 47 ، وفيات الأعيان: 2 / 382.

56-انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ: 4 / 1341 ، طبقات الشافعية للسبكي: 7 / 119.

57-انظر ترجمته في وفيات الأعيان: 3 / 227 ، شذرات الذهب: 4 / 327.

58-انظر ترجمته في: إنباه الرواة: 3 / 320 ، بغية الوعاة: 2 / 299.

59-انظر ترجمته في: شذرات الذهب: 5 / 25.

60-انظر ترجمته في: بغية الوعاة: 2 / 212.

61-انظر ترجمته في: البداية والنهاية: 17 / 326.

62-انظر: سير اعلام النبلاء: 21 / 490.

63-انظر: سير أعلام النبلاء: 21 / 490 ، طبقات الشافعية: 8 / 366.

64-انظر: طبقات الشافعية: 8 / 366.

65-انظر: طبقات الشافعية للسبكي: 8 / 367

66-انظر: معجم الأدباء: 5 / 2269 ، سير أعلام النبلاء: 21 / 490.

67-انظر: سير أعلام النبلاء: 21 / 488.

68-انظر: معجم الأدباء: 5 / 2268.

69-انظر: وفيات الأعيان: 4 / 142.

70-انظر: معجم الأدباء: 5 / 2270 ، وفيات الأعيان: 4 / 141 ، سير أعلام النبلاء: 21 / 491.

71-وفيات الأعيان: 4 / 142.

72-مفتاح السعادة: 1 / 125، وانظر: شرح نخبة الفكر لابن حجر: ص / 504.

73-الرسالة المستطرفة: ص / 156.

74-انظر مقدمة تحقيق النهاية: 1 / 8

75-كشف الظنون، حاجي خليفة، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، (دت، در) : 2 1989

76-انظر: معجم الأدباء: 5 / 2270 ، وفيات الأعيان: 4 / 141 ، سير أعلام النبلاء: 21 / 491.

77-النهاية: 1 / 156، والغريبين: 1 / 210.

78-النهاية: 4 / 211.

79-النهاية: 4 / 208.

80-النهاية: 5 /272.

81-النهاية: 1 / 102.

82-النهاية: 2 / 390.

83-النهاية: 1 / 339.

84-النهاية: 1 / 405.

85-النهاية: 2 / 61.

86-النهاية: 3 / 153.

87-وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي، أنظر: السبعة في القراءات، ابن مجاهد، تحقيق: د. شوقي ضيف، الطبعة الثالثة، مصر، دار المعارف،(دت، در)، ص:301، وحجة القراءات، أبو زرعة عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1982م،ص:305.

88-النهاية: 1 / 106.

89-غريب القرآن في شعر العرب، عبد الله بن عباس، سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس، تحقيق محمد عبد الرحيم وأحمد نصر الله، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، ط1، 1993م، ص:29.

90-عنترة: الديوان (تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1403هـ-1983م) ص:273.

91-المفردات، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، دار القلم، دمشق، 1412هـ 1992 م، ص:366، مادة (غنم).

92-ابن سعد: الطبقات الكبرى (دار صادر، بيروت، دت،در)، 113/1، وفي السيرة النبوية " أنا أعربكم، أنا قرشي استرضعت في بني سعد بن بكر"، ينظر ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار القلم، بيروت، لا.ت، (176/1).

93-الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص 6

94-السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، 1973م، (119/1-120).

95- محمد حسين آل ياسين: الدراسات اللغوية عند العرب، ص:147.

96-ابن قتيبة: غريب الحديث، تحقيق د. عبد الله الجبوري، وزارة الأوقاف، بغداد، 1976-1977م، (5/1).

97-المبرد: الكامل، حققه وعلق عليه د. محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت ط2، 1413هـ-1993م، (360/1-361).

98-أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، حققه وقدم له مصطفى الشويمي، مؤسسة أ.بدران، بيروت، 1964م، (ص:50-51).

99- عقد ابن فارس فصلاً في كتابه أوضح فيه وجود اختلاف لغات العرب، يراجع، أحمد بن فارس: المصدر السابق، ص:48-50.

100- ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، (4/1).